وزارة الثقافة

أخي إبراهيم

تأليف: فدوى طوقان

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

أخي إبراهيم

تأليف: فدوى طوقان

صدرت الطَّبعة الأولى منه عام ١٩٤٦
عن شركة الطِّباعة اليافية

وزارة الثقافة الفلسطينية

سلسلة الموروث الثقافي

اسم المؤلف: فدوى طوقان

اسم الكتاب: أخي إبراهيم

الطبعة الأولى: ١٩٤٦ عن شركة الطِّباعة اليافيَّة

الطبعة الثانية: ٢٠٢٢

مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات

تصميم الغلاف: فاطمة حسين

لوحة الغلاف للفنانة: نهيل بشارة

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين

www.moc.pna.ps

أخي إبراهيم

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة، بل كانت ارض معطاءة وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر والفلسفة. ان هذه الكوكبة من الكتب التي نعيد اصدارها تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا الشعب وحبه للثقافة والمعرفة.

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد وكانت منارة يهتدي بها الآخرون، ويفدون اليها طلباً للعلم والمشاركة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها.

نعتز بموروثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا. ونريد ان نحافظ عليه، ونريد للاجيال القادمة ان تقرأه وتعتز به وتبدع كما ابدع اسلافهم.

٣٠/٣/٢٠٢٠

المرحوم أخـي إبراهيم عبد الفتاح طوقان

صورة مهداة إلى بنت أخ الشـاعر فوز أحمد طوقان

أي لحون رُعْنَ سمع الزمنْ

بعَثها من نبضات الفؤادْ

أودعتَها الروح تناجي الوطنْ

فيها، فتهزُّ الربا الوهادْ

ثم تراميتَ صريعَ الوهنْ

مُخضَّبَ الرُّوحِ، سليبَ الضّمادْ

وامتنع الشَّدو، كأنْ لم يكنْ

وجذوة القلب استحالتْ رمادْ

فدوى

(١)

لا أحبّ إليَّ من ساعة، آخذ فيها مجلسي من أمي، فتحدثني عن طفولة شقيقي إبراهيم - رحمه الله، وسقى بصيب رحمته ثراه -. ويا له من شعور حزين، يتسرب في شعاب قلبي، حين تفتتح حديثها عن إبراهيم، بهذه الديباجة التي تفعم نفسي بالرحمة لها، والحسرة عليه: «لقد بلوت في إبراهيم الحلو والمر، ولقيت فيه من الحزن وطارقات الهموم، أضعاف ما لقيت فيه من السعادة والهناء». وتترقرق في عيني كل منا دمعة، وتعتلج في صدر كل منا لوعة، ثم تشرع هي في حديثها عن طفولة إبراهيم، وقد أقبلت عليها بحواسي وقلبي وروحي جميعًا.

(٢)

كان إبراهيم لعوبًا إلى حد بعيد، لا يقتصد إذا أخذ بسبب من أسباب العبث واللعب، وكأنما كانت نفسه تضيق بإهابه، فلا يهدأ، ولا يستقر. وهو في أحيان كثيرة على خلاف مع جدته لأمه، رحمها الله، إذ كان على وفاق مع طبيعته المرحة اللعوب. كان يعرف نزق جدته، وضيقها بالضجة والحركة، فلا يألو جهدًا في معابثتها، واستفزازها؛ وذلك لكي تزجره وتنتهره برطانتها التركية، التي كانت تخالطها من هنا وهناك، كلمات عربية، لا تستقيم لها مخارج بعض حروفها، فتأتي ملتوية عوجاء، تبعث إبراهيم على الضحك، ولقد تهم الجدة باللحاق به، فيفر منها، ويتسلق إحدى شجرات النارنج، التي تمتلئ بها ساحة الدار، وهناك يأخذ مكانه بين الفروع الغليظة الصلبة، وينتهي الأمر

بينهما عند هذا الحد. ثم يشرع، وهو في مقعده ذاك من الشجرة، يترنم بالأهازيج الشعبية، التي كانت تروقه وتلذه كثيرًا.

وإنني لأمثل في خاطري، ذلك الشيخ الوقور، جدي لأبي، رحمه الله، متربعًا في كرسيه العريض، مشتملا بعباءته، وإلى جانبه حفيده الصغير إبراهيم، يتقارضان من الشعر والزجل (والعتابا)، ما يعيه قلباهما.

وإنني لأمثل إبراهيم في خاطري، كما يصورونه لي، واقفًا أمام جده، يرتجل ما ينقدح عنه فكره الصغير يومئذ، من قول يرسله في وصف حادث حدث في البيت، فيه نكتة، أو طرافة... وذلك في ألفاظ، تكاد تكون موزونة مقفاة، يقلد في ذلك، ما كان يستظهره في المدرسة من شعر، أو ما يعيه قلبه من قصص «عنترة» و«أبي زيد الهلالي» و«سيف بن ذي يزن»، تلك القصص التي كثيرًا ما أصغى إلى أمه، وهي تقرأها لجده لأبيه، في أمسيات الصيف الجميلة، أو في ليالي الشتاء الطويلة.

كان ذلك التقليد من إبراهيم لأسلوب الأشعار الموقعة، التي يحفظها في المدرسة، ولأسلوب القصص المسجعة، التي يسمعها تقرأ في البيت، يملأ نفس الجد غبطة، ويفعمها بهجة، فيأخذ حفيده إليه، ويحتويه بين ذراعيه، ويقول له بلهجة المعجب المتعجب: «من أين تأتي بهذا الكلام يا إبراهيم!». ثم يأخذ كيس نقوده من جيبه، ويتناول منه قطعة، يقبضها إبراهيم، وينطلق بها مرحًا خفيفًا، كأنه طيف من الأطياف.

على مثل تلك المقارضات والمساجلات، وعلى مثل هذه المحاولة الصبيانية لقول الشعر، التي كانت تروق الجد، بما فيها من تسلية

لشيخوخته، والتي كانت تستهوي الحفيد، بما فيها من إشباع لفطرة شعرية كامنة فيه، نشأ إبراهيم أول ما نشأ.

(٣)

وفي هذه الأثناء أيضًا كان إبراهيم يبعث بالعجب والطرب معًا في نفس معلمه، إذ يقف أمامه وقفته الخاصة،

كلما قام لينشد الشعر في درس الاستظهار، سواء أكان ذلك الشعر عربيًّا أم تركيًّا، فيلقيه إلقاءً موسيقيًّا جميلًا، ينبعث له طرب المعلم، فيشرع ينقر بأصابعه على المكتب، نقرات إيقاعية، تساير ذلك الإلقاء الرائع الذي كان يزيد في روعته، صوت خلابٌ آسر، عرف له في مواقفه الخطابية فيما بعد.

كانت المدرسة الرشادية الغربية، حيث تلقي إبراهيم دروسه الابتدائية، تنهج في تعليم اللغة العربية، نهجًا حديثا، لم يكن مألوفًا في مدارس نابلس، في العهد التركي؛ وذلك بفضل بعض المدرسين النابلسيين، الذين تخرجوا في الأزهر، وتأثروا في مصر، بالحركة الشعرية والأدبية، التي كان يرفع لواءها شوقي وحافظ، وغيرهما من شعراء مصر وأدبائها. هؤلاء المدرسون، أشاعوا في المدرسة روح الشعر والأدب الحديثة، وأسمعوا الطلاب، للمرة الأولى في حياتهم الدراسية، قصائد شوقي وحافظ ومطران وغيرهم، وفتحوا أذهانهم على أسلوب إنشائي حديث، فيه رونق، وله حياة، يختلف اختلافًا كبيرًا، عن ذلك الأسلوب القديم الذي كان ينتهج

في المـدارس في نابلـس، والـذي لم يكـن ليخـرج عـن كونـه أسـلوبًا تقليديًّـا عقيـمًا، لا تأثـير لـه، ولا غنـاء فيـه.

مـن هـؤلاء المدرسـين المجدديـن، المرحـوم الشـيخ إبراهيـم أبـو الهـدى الخـماش، وكان جريئًـا صريحًـا، ذا نزعـة عربيـة صميمـة، ومبـادئ وطنيـة قوميـة، يجهـر بهـا ويبثهـا في النفـوس عـن طريـق خطبـه وتدريسـه ومجالسـه، وذلـك في عهـد، كان الجهـر بمثـل تلـك المبـادئ، يـودي بأهلـه إلى المهالـك. وقـد التحـق فيـما بعـد، بالثـورة العربيـة، تحـت لـواء المغفـور لـه الملـك فيصـل.

ومـن هـؤلاء المدرسـين أيضًـا، صاحـب الفضيلـة الشـيخ فهمـي أفنـدي هاشـم، قـاضي قضـاة شرق الأردن اليـوم، وهـو عـالم فاضـل أديـب، يقـول الشـعر كلـما طـما بـه، فيجيـد القـول.

ولقـد كان تأثـير هـؤلاء المدرسـين المجدديـن في إبراهيـم، كتأثـير عنـاصر التربـة الصالحـة، في الغـرس الصغـير، الـذي لم تسـتحكم أصولـه بعـد.

أمـضى إبراهيـم أربـع سـنوات في هـذه المدرسـة، هـي سـنوات الحـرب العظمـى، وانتقـل عـلى إثـر الاحتـلال الإنجليـزيّ مبـاشرة، إلى مدرسـة المطـران في القـدس، ولـه مـن العمـر أربعـة عـشر عامـا.

(٤)

وهنا، نعرض لشخصية تعرف بها إبراهيم في القدس، فكان لها انطباع في نفسه في ذلك الحين، تلك هي شخصية المرحوم نخلة زريق، وكان هذا متأثرًا باليازجيين، واسع الاطلاع على الآداب الإسلامية العربية، شديد التعصب للغة، شديد الوطأة على كل عربي متفرنج، يتهاون في لغته أو عر بيته، وكان ذا شخصية قوية، لا بد من أن تترك في أعماق من تعرف بها، أثرا منها.

كان المرحوم نخلة زريق، مدرسًا للغة العربية في الكلية الإنجليزيَّة في القدس، فتح عيون طلابه على كنوز الشعر العربي، وحببها إليهم، ولقد كان إبراهيم، وهو في مدرسة المطران يأخذ من شقيقه أحمد - وكان طالبا في الكلية الإنجليزية - منتخبات الشعر القديم والحديث، مما يختاره المرحوم نخلة زريق لطلابه، فيستظهرها جميعا، وعن طريق أحمد، تعرف إبراهيم بذلك المدرس الأديب، فكانا يزورانه معًا في بيته الذي كان محجة العلماء والأدباء في القدس، ويصغي إليه وهو يتدفق في حديثه عن الأدب والشعر، والعرب والعروبة، مما كان له شأن في إيقاظ وعي إبراهيم، على مؤثرات أدبية وقومية أخرى.

وإذ أتم أحمد دراسته في الكلية الإنجليزيَّة، وتوجه إلى الجامعة الاميركية في بيروت، ظلت تلك الأسباب موصولة بين إبراهيم، وبين المرحوم نخلة زريق، ولكن لمدة قصيرة، إذ توفي الثاني سنة ١٩٢٠.

في هـذه الفـترة مـن الزمـن، كان إبراهيـم يحـاول أن يقـول الشعر الصحيـح، فتلتـوي عليـه مسـالكه، ولا يفلـح فيـه، إذ لم يكـن قـد درس علـم العـروض بعـد.

وفي العطلـة المدرسـية، يعـود أحمـد مـن بـيروت، ويلتقـي الشـقيقان في نابلـس، وقـد حمـل أحمـد لإبراهيـم، مـا حصلـه هنـاك مـن علـم العـروض، ويـشرح لـه تفاعيـل الأبحـر الشـعرية ويوقفـه عـلى أصـول القـوافي، فيسـتوعب الشـاعر المنتظـر، كل أولئـك جميعـا، وكأنمـا فُتِـحَ لـه فتـح في دنيـا الشـعر التـي كان يتشـوق إليهـا، ويعقـد عليهـا آمالـه ومطامحـه.

وعـلى إثـر ذلـك، يبـدأ إبراهيـم يقـرزم الشـعر قرزمـة، ويقولـه في المناسـبات التـي تعـرض لـه، والأحـوال التـي تمـر عليـه في مدرسـة المطـران، مـما يوحـي بـه الجـو المـدرسي، بمـا فيـه مـن جـد وهـزل.

وفي مجموعـة أشـعاره التـي نظمهـا خـلال عاميـه الأخيريـن. في مدرسـة المطـران، نحـس بالشـاعرية الكامنـة التـي كانـت تأخـذ عدتهـا، لتسـتعلن بعـد حـين قصـير في شـعره القـوي، كـما تلمـس تلـك الـروح الوطنيـة المشـتعلة، التـي شربهـا منـذ الصغـر وأذابهـا فيـما بعـد، في شـعره الوطنـي.

وفي سـنة ١٩٢٣ نـشر إبراهيـم لأول مـرة إحـدى قصائـده ويقـول إبراهيـم بهـذا الشـأن:

«لعلهـا أول قصيـدة نـشرت لي في صحيفـة. رحـم اللـه عمـي أبـا داود! قرأهـا فأبـدى إعجابـه بهـا (عـلى سـبيل التشـجيع)، وطلـب اليَّ أن أبيضهـا لينشرهـا

في الجريـدة! في الجريـدة؟ شيء يطيـش لـه العقـل، فأسرعـت إلى تلبيـة طلبـه، وعنيـت بكتابتهـا قيراطًـا وبوضـع اسـمي تحتهـا ثلاثـة وعشريـن قيراطًـا... ثـم أتيـت بهـا إليـه، قـال رحمـه اللـه: «أتضـع اسـمك هكـذا: إبراهيـم طوقـان؟ لا بنـي! يجـب أن تضـع اسـم الوالـد أيضًـا، إبراهيـم عبـد الفتـاح طوقـان، اعترافًـا بفضلـة عليـك، وبـره بـك...» أدب أدبنـي بـه عمـي رحمـه اللـه، لا أعلـم أننـي وقعـت اسـمي بعـد ذلـك إلا تذكـرت قولـه وعملـت بـه في كل أمـر ذي بـال أردت نـشره».

ولقـد كان مـن أكـبر الأسـباب التـي أعانتـه عـلى أن يقـول الشـعر، فيجيـده بالقيـاس إلى صغـر سـنه، هـو كـثرة حفظـه للشـعر المنتخـب، واحتفالـه الكبـير بالقـرآن الكريـم فقـد كان كثـير التـلاوة لـه، عميـق النظـر فيـه. وأمـا ذلـك الاحتفـال منـه بكتـاب اللـه، فإنـه يرجـع بدواعيـه وأسـبابه إلى بيئـة في البيـت، يعنـى أصحابهـا بتنشـئة أطفالهـم عـلى تلاوتـه، والتشـبع بروحـه. ولم ينفـك إبراهيـم منـذ صغـره، يقـرأ القـرآن، ويطيـل التأمـل فيـه، حتـى أصبـح لـه ذلـك ديدنـا، لا يعوقـه عنـه عائـق ولا يصرفـه عنـه تقلبـه في مختلـف معاهـد العلـم الأجنبيـة، فيـما بعـد.

ولم تكـن تلاوتـه للقـرآن الكريـم، تـلاوة سـطحية عابـرة، بـل كان يتجـه إليـه بقلبـه وروحـه، ويحـس لـه في نفسـه وقعًـا عجيبًـا، وأثـرًا بعيـدًا، فيهـزه إعجـازه هـزًّا، وتفعـل فيـه بلاغتـه فعـل السـحر، ويسـتولي عليـه خشـوع عميـق، يصرفـه عـن كل مـا يحيـط بـه.

(٥)

انتهـى إبراهيـم مـن تحصيلـه في مدرسـة المطـران، سـنة ١٩٢٢-١٩٢٣ وانتقـل إلى الجامعـة الأميركيـة في بـيروت. وهنـا تبـدأ أخصـب مراحـل حياتـه الدراسـية، وأكثرهـا ألوانًـا.

فها هـو في بـيروت، يظلـه أفـق أدبي واسع جدّ واسع، لا عهـد لـه بمثلـه في فلسـطين. هنالـك الأدبـاء والشـعراء، وهنالـك الدنيـا براقـة خلـوب، وهنالـك بعـد ذلـك، السـهم الـذي كان ينتظـره منجذبـا عـن وتـره إلى آخـر منـزع؛ يتربـص بـه الفـرص، لينفـذه في قلبـه الـذي لم يكـن قـد مسـه الحـب بعـد.

في هـذه الجامعـة، يعرفـه شـقيقه أحمـد بأحـد أصدقائـه مـن الطـلاب، وهـو سـعيد تقـي الديـن، وسـعيد، مـن أولئـك الذيـن يتذوقـون الشـعر؛ ويميـزون بـين صحيحـه وزائفـه، تمييـزا صائبـا، فيلمـح هـذا في شـعر إبراهيـم، بارقـات وصـورًا شـعرية، تلـوح مـن هنـا، وتسـتتر مـن هنـاك، وتسـاند أحمـد وصديقـه سـعيد، وبـدءا يوجهـان إبراهيـم التوجيـه الصحيـح في عـوالم الشـعر، ودنياواتـه الرحيبـة الجميلـة.

وفي عامـه الـدراسي الثـاني في الجامعـة، وكانـت شـاعريته قـد بـدأت تزخـر وتمتلـئ، لتنبثـق عـن معينهـا، بعـد أن أخـذت عدتهـا مـن هـذه الصناعـة الدقيقـة، صناعـة الشـعر، نظـم إبراهيـم قصيدتـه في الممرضـات، أو (ملائكـة الرحمـة). فكانـت أول قصيـدة لفتـت الأنظـار إليـه في سـوريا.

ففـي هــذا العـام (١٩٢٤) مـرض إبراهيـم، واضطـره ذلـك إلى العـودة إلى نابلـس، قبـل انتهـاء الفصـل الـدراسي الأول. وفي أثنـاء مرضـه نظـم تلـك القصيـدة، ونشرهـا في جريـدة (المعـرض) التـي كانـت تصـدر يومئـذ في بـيروت. فـإذا بالعيـون تتطلـع إلى هـذا الشـاعر الناشـئ، الطالـب في الجامعة، وإذا بالصحـف تتناقلهـا. نقلتهـا مجلـة (سركيـس) عـن (المعـرض)، وعلقـت عليهـا بقولهـا: «ولعلـه مـن أول مـن نظـم شـعرا عربيـا في هـذا الموضـوع». وطلبـت القصيـدة مـن قبـل مجلـة (التمـدن) في الأرجنتـين، وأهديـت إليـه المجلـة سـنة كاملـة، وكان مـما علقتـه عليهـا قولهـا: «ولـو كان كل مـا ينظمـه شـعراؤنا في هـذا البـاب مـن هـذا النـوع، لـكان الشـعر العـربي في درجـة عاليـة مـن القـوة والفتـوة». ونقلتهـا جرائـد ومجـلات أخـرى، وكلهـا تطـري الشـاعر، وتشـجعه.

أمـا هـذه القصيـدة، فهـي وإن تكـن قيلـت في موضـع (الممرضـات)، غـير أن قسـما كبـيرا منهـا كان في وصـف الحـمام، تلـك الطيـور الوديعـة، التـي كان يغـرم بهـا إبراهيـم، ويعنـى باقتنائهـا وتربيتهـا أيـام صبـاه. وتحدثنـي أمـي، كيـف كان وهـو طفـل، ينجـذب إلى هـذا الطائـر انجذابـا خاصـا، ويتأملـه محوّمًـا رائحًـا غاديًـا، وكيـف كان إبراهيـم، إذا وقـف كل صبـاح بالبركـة التـي تقـوم في صحـن الـدار، ليغسـل وجهـه وأطرافـه، أطـال هنـاك الوقـوف، مسـتغرقا في تأملـه لأسراب الحـمام، وقـد حفَّـت ببركـة المـاء، تغتسـل وتعبـث بريشـها، فـلا يـزال عـلى وقفتـه تلـك، إلى أن ينبهـه والـداه، بأنـه قـد أبطـأ عـلى المدرسـة.

وفي قصيدة «الممرضات»، يقول إبراهيم مستهلًّا بوصف الحمام:

بيض الحمائم حسبهنه إني أردد سجعهنه
رمز السلامة والوداعة منذ بدء الخلق هنه
في كل روض فوق دانية القطوف لهنّ أنَّه
ويملن والأغصان ما خطر النسيم بروضهنه
فإذا صلاهن الهجير هبن نحو غديرهنه
يهبطن بعد الحوم مثل الوحي لا تدري بهنه
فإذا وقعن على الغدير ترتبت أسرابهنه
صفين طول الضفتين تعرّجًا بوقوفهنه

إلى أن يقول:

يقع الرشاش إذا انتفضن لآلئًا لرؤوسهنه
ويطرن بعد الابتراد إلى الغصون مهودهنه
تنبيك أجنحة تصفق كيف كان سرورهنه
وتخالهن بلا رؤوس حين يقبل ليلهنه
أخفينها تحت الجناح ونمن ملء جفونهنه

وهكـذا لا يـزال في تصويـره الحـمام، إلى أن يتخلـص إلى موضوعـه هـذا التخلـص الجميـل، فيقـول في (ملائكـة الرحمـة):

المحسنات إلى المريض غدون أشباهًا لهنه

الروض كالمستشفيات دواؤها ايناسهنه

ما الكهربـاء وطبّها بأجل من نظراتهنه

يشفي العليل عناؤهن وعطفهن ولطفهنه

من الدواء بفيـك حلو من عذوبة نطقهنه

مهـلًا فعندي فارق بين الحمام وبينهنه

فلربما انقطع الحمائم في الدجى عن شدوهنه

أما جميل المحسنات ففي النهار وفي الدجنه

وهكـذا يمـضي إبراهيـم في طريـق النظـم، وكانـت نشـوة توفيقـه بقصيـدة ملائكـة الرحمـة، قـد أفعمتـه بالزهـو والخيـلاء، كـما يقـول، إلى أن تلقـى درسًـا أليـمًا، أوحـى إليـه يومئـذ بقصيـدة عنوانهـا «عـارضي نوحـي بسـجع»، وفيهـا تنعكـس حالتـه النفسـية الثائـرة، التـي ترجـع بأسـبابها إلى الـدرس الأليـم الـذي تلقـاه.

يقـول إبراهيم بهذا الصدد:

«كنـت قـد توفقـت بقصيـدة ملائكـة الرحمـة، وسـمعت كثـيرا مـن كلـمات الإعجـاب بهـا، فخيـل إليَّ أن كل قصائـدي في المسـتقبل، سـتكون مثلهـا مدعـاة للإعجـاب! وأخـذت في نظـم قصيـدة غزليـة، وأنـا مفعـم بزهـوي وخيـلائي، وذهبـت أغـوص عـلى المعـاني، وأتفنـن بالألفـاظ! وكان يـشرف عـلى نشـأتي الأدبيـة اثنـان مـن الزبانيـة، هـما أخـي أحمـد، وسـعيد تقـي الديـن، فهرعـت إليهـما لأسـمع إعجابهـما وأنتـشي بـه، وتلـوت عليهـما القصيـدة، وظفـرت بالإعجـاب! وتـركاني وعـادا إليَّ بعـد قليـل. قـال أحمـد: «أخـي، أنـا لا أفهـم القصيـدة جيـدا حـين تتـلى عـلي، أريـد أن أقرأهـا بنفـسي». فناولتـه القصيـدة، ودنـا رأس سـعيد مـن رأس أحمـد، وشرعـا في قـراءة صامتـة، ثـم كانـت نظـرات، تبادلاهـا، أحسسـت منهـا بمؤامـرة... وإذا بالقصيـدة تمـزق، وإذا بهـا تنسـف في الهـواء. قـال أحمـد: «هـذه قصيـدة سـخيفة المعنـى، ركيكـة المبنـى...» قـال سـعيد: «ليـس مـن الـضروري أن تنظـم كل يـوم قصيـدة!». قـال أحمـد: «كلهـا تكلـف وحذلقـة...» قـال سـعيد ليهـون أثـر الصدمـة: «لا بـأس بهـا، لكنهـا لا شيء بالنسـبة إلى قصيـدة ملائكـة الرحمـة، اعمـل كل سـنة قصيـدة مثـل ملائكـة الرحمـة وكفـاك».

قـال أحمـد... وقـال سـعيد... ولكـن كان رأسي بـين أقوالهـما كأنـه في دوار، ولم أتمالـك عـن البـكاء، وتركتهـما حانقـا ناقـما. وبعـد سـاعة، كان سـعيد فـوق رأسي - وأنـا لا أدري - يتلـو أثـر تلـك الصدمـة في قصيـدتي «عـارضي نوحـي بسـجع». فاختطفهـا، وعـاد إليّ بهـا في الصبـاح، وعليهـا الجملـة الآتيـة، بقلـم عمـه الشـيخ أمـين تقـي الديـن: «روح شـاعرة، ليتهـا في غـير

معاني اليأس، فالشباب واليأس لا يلتقيان، أما النظم، فيبشر بمستقبل فيه مجيد».

قسوة وعنف؛ أفاداني أن أكون مع نفسي بعدئذ قاسيا عنيفا، أمزق القصيدة حين أشعر بالتكلف يدب فيها، وأن أقف موقف الناقد الهدام، أحطم شعري بيدي، أو أبديه وأنا راضٍ عنه، ضامن رضا قارئه أو سامعه. أحمد وسعيد ليسا من الزبانية، إنهما ملكان كريمان! جزاهما الله عني خيرًا»

ونعود إلى ما بدأنا به من الحديث عن أيام إبراهيم في بيروت فنقول: مضت عليه سنوات ثلاث في الجامعة، بلغ في نهايتها الثانية والعشرين، وقد قعد به المرض خلالها عن إتمام دراسته في الصف الأول العلمي، فانتقل إلى نابلس ثم عاد في العام الذي تلا ذلك إلى الجامعة. وكان في هذه السنوات الثلاث، لا ينقطع عن قول الشعر. وفي سنة ١٩٢٥ نشرت له جريدة (الشورى) في مصر، نشيدا وطنيا؛ لتحية المجاهد عبد الكريم الريفي. فلما اطلع الشاعر خير الدين الزركلي على النشيد قال: «إن صدق ظني، فإن صاحب هذا النشيد سيكون شاعر فلسطين».

(٦)

ومن عجب، أن يظل قلب إبراهيم خاليا من المرأة حتى ذلك الحين، ولقد كان أصدقاؤه في الجامعة يعجبون لذلك، ويقولون له على سبيل المزاح: «أنت شاعر، ولكن بلا شعور، أين وحي المرأة في شعرك؟».

في نهايـة تلـك السـنوات الثـلاث، بلـغ إبراهيـم الثانيـة والعشريـن كـما ذكرنـا مـن قبـل. وهنـا مـس الحـب قلبـه.. ولكـن، هـل كان مـس ذلـك الحب رقيقـا رحيـما؟ كلا، بـل كان مسًّـا عنيفًـا ملهبًـا، أشـعل روحـه، وأيقـظ حسـه، وأرهـف نفسـه.

في سـنة ١٩٢٦، طلعـت في الجامعـة الأميركيـة في بـيروت، فتنـة تمثلـت في صـورة فتـاة طالبـة هنـاك، فأحيـت قلوبـا، وسـحقت قلوبـا... وتـورط إبراهيـم، ودخـل المعركـة، وابتـلي حسـنات وسـيئات. أمـا السـيئات، فليـس هـذا بموضـع تدوينهـا، وأمـا الحسـنات، فتنحـصر في الطريـق الأدبي الجديـد الـذي نهجـه، والاسـتعداد الكبـير للسـير في هـذا الطريـق.

صـار قـوي الملاحظـة، حـاضر العاطفـة، متوفـز الأعصـاب. صـار كثـير المطالعـة، صيـادًا للمعـاني، بسـيط العبـارات، سـهل الفهـم، مصيبًـا.

تلك هي حسـنات ذلك الحب، على حد تعبيره.

ونظـم في فتاتـه قصيدتـه (في المكتبـة)، ونـشرت القصيـدة في إحـدى الصحـف في بـيروت، فنطقـت بألسـنة الكثيريـن مـن الطلاب والأسـاتذة أيضـا، فقـال:

وغريـرة في المكتبة بجمالها متنقبه

أبصرتها عند الصباح الغض تشـبه كوكبه

جلسـت لتقرأ أو لتكتب ما المعلم رتّبه

فدنوت أسـترق الخطى حتى جلست بمقربه

وحبسـت، حتى لا أرى، أنفاسي المتلهبّه

ونهيت قلبـي عن خفوق فاضح، فتجنبه

* * *

راقبتها، فشـهدت أن الله أجزل في الهبه

حمل الـثرى منها على نور اليدين وقلبه

وسـقاه في الفردوس مختوم الرحيق وركبه

فإذا بها ملـك تنزل للقلوب المتعبه

يا ليت حـظ كتابها لضلوعي المتعذبه

حضنتـه تقرأ مـا حوى وحنت عليه وما انتبه

فإذا انتهى وجه ونال ذكاؤها ما استوعبه

سمحت لأنملها الجميل بريقها كي تقلبه

* * *

وسمعت وهي تغمغم الكلمات نجوى مطربه

ورأيت في الفم بدعة خلابة مستعذبه

إحدى الثنايا النيرات بدت وليس لها شبه

مثلومة من طرفها لا تحسبنها مثلبه

هي، لو علمت، من المحاسن عند أرفع مرتبه

هي مصدر (السينات) تكسبها صدى ما أعذبه

* * *

وأما وقلب قد رأت في الساجدين تقلبه

صلى لجبار الجمال ولا يزال معذبه

خفقانه متواصل والليل ينشر غيهبه

متعذب بنهاره حتى يزور المكتبه

وأما وعينك والقوى السحرية المتحجبه

ما رمت أكثر من حديثٍ طيب ثغرك طيبه

وأروم سنك ضاحكا حتى يلوح وأرقبه

* * *

ومنذ ذلك الحين، أخذ إبراهيم يضرب على قيثار الغزل، فيطرب سمّاعه، ويعجب قراءه. وقد أحبته فتاته بمقدار ما أحبها، ثم ضرب الدَّهر بينهما، فكانت نهاية حبه مأساة، خلفت في قلب الشاعر جرحا، كان يندمل حينا وتنكأه الذكرى حيناً آخر، فينعكس ذلك في شعره كما تنعكس صورة المرء، على صفحة المرآة المصقولة.

نكتفي بهذا القدر من قصة ذلك الحب، الذي كان له أكبر الأثر في إرهاف حسه، والسمو بشاعريته إلى سماء الشعر الصادق، الذي ينبثق من ذات النفس، وينبعث من أعماق الروح.

ونلتفت الآن إلى بعض الأجواء الأخرى، التي كانت تحيط بإبراهيم في أعوامه التي قضاها طالبًا في الجامعة.

لقد احتضنت إبراهيم، في الجامعة وخارجها، بيئة شعرية أدبية، لم تكن لتحتضنه لو لم يكن في بيروت. أما في الجامعة، فقد كان هناك رعيل من أقرانه الطلاب، امتاز بصبغته الشعرية، وتعاطيه لقول الشعر الجزل. من ذلك الرعيل كان حافظ جميل (أبو النواس) وعمر فروخ (صريع الغواني) ووجيه بارودي (ديك الجن) وابراهيم (العباس بن

الأحنف). وكان تجاوب الذوق والمشرب، قد وصل بين هؤلاء بأسباب المحبة والأخوة. وكانت تجري بين حافظ ووجيه وإبراهيم، مساجلات شعرية عديدة، تناقلها الطلاب وأحبوها. غير أن هذه المساجلات، لم تكن لتخرج عما توحي به طبيعة الشباب الملتهب، المندفع وراء الحياة.

هذا في الجامعة، وأما خارجها، فقد كانت هناك مجالس الأدب العالي، والشعر الرفيع. وكلها تفتح لإبراهيم صدرها، وتوليه من عنايتها واهتمامها، وتعقد بينه وبين أصحابها صلة الود. وحسبي أن أذكر من أصحاب تلك المجالس الأدبية الرفيعة، المرحوم الشيخ أمين تقي الدين والشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير).

أصبح إبراهيم شاعر الجامعة، كما لقبته صحف بيروت. ولم يقتصر في ذلك العهد على الشعر الغزلي فحسب، بل كانت أغاريده الوطنية الفياضة بالعواطف الصادقة، والإيمان الوطني القوي، تسير جنبا إلى جنب، مع أغاريده الغزلية. وهذان هما الوتران اللذان برز إبراهيم بالضرب عليهما.

وفي سنة ١٩٢٩، نال شهادته من الجامعة، ليخوض بحر الحياة العملية، المزبد، المتلاطم.

(٧)

معلـم، معلـم، معلـم، هـذه هـي الكلمـة التـي كان يسـمعها تـتردد عـلى شـفاه الكثيريـن مـن الطـلاب الخريجـين، يـوم توزيـع الشـهادات. فيقـول لنفسـه: «أبعـد هـذا العنـاء والكـد، يختـار هـؤلاء التعليـم مهنـة، ألا سـاء مـا يفعلـون؛ مـا أقـصر مـدى طموحهـم».

أمـا هـو، فقـد كانـت المفاوضـات جاريـة بينـه وبـين إحـدى دور الصحافـة في مـصر، وتوشـك أن تنتهـي عـلى أحسـن مـا يتمنـاه. فهـذه مهنـة تلائـم ذوقـه عـلى الأقـل، وتسـير مـع اختصاصـه، سـيكون محـررًا في مجلـة كـبرى في القاهـرة، وناهيـك بالقاهـرة مـن مدينـة فـن وأدب وجـمال، وأي شيء تصبـو إليـه نفـس الأديـب الناشـئ الطمـوح، ولا يجـده في القاهـرة؟ المكتبـة الكـبرى، الأزهـر، الصحـف، الشـعراء، الكتـاب؛ «يـا مـصر، للـه مـصر!». صحفـي صحفـي.

هذا ما كان إبراهيم يحدث به نفسـه في أيامه الأخيرة في الجامعة..

مـن المنصـة التـي منـح عليهـا (البكالوريـا)، مـشى إبراهيـم إلى سريـر المستشـفى، وأراني حتـى الآن، لم أشر إلى أنـه كان يشـكو ألمـا في معدتـه، منـذ أيـام التلمـذة في مدرسـة المطـران في القـدس، وكثـيرا مـا أقعـده ذلـك عـن مواصلـة التحصيـل، إلى أن يشـفى فيعـود إليهـا، وكثـيرا مـا حملـه بعـد ذلـك، عـلى الاسـتقالة مـن وظائفـه التـي تقلـب فيهـا.

أبـل إبراهيـم مـن مرضـه، وكان والـده إلى جانبـه في هـذه الآونـة إذ قـدم إلى بـيروت ليشـهد حفلـة الجامعـة، ثـم توجـه الاثنـان إلى مـصر ليستشـيرا الأطبـاء هنـاك، وليبحـث إبراهيـم في شـغله الصحفـي.

وفي مـصر ينفـذ البرنامـج، وتتجـه صحـة إبراهيـم اتجاهـا حسـنا، وبعـد بضعـة أسـابيع يعـود الوالـد بولـده إلى نابلـس، قريـر العـين، ناعـم البـال، عـلى أن يعـود إبراهيـم للشـغل في مـصر، بعـد أن يمـضي مـع ذويـه أيامـا قليلـة.

غـير أن الأم تـأبى عليـه ذلـك، وتحكـم أن يظـل ولدهـا قريـب منهـا، وتدخـل العاطفـة في الموضـوع. زد عـلى ذلـك أن أبـاه لم يكـن راغبًـا في شـغله في مـصر.

وكانـت هنالـك ظـروف أخـرى، شـاءت أن يلغـي إبراهيـم برنامجـه الصحفي، ويـضرب بهـذا الأمـل المنشـود عـرض الحائـط، ولـو لمدة سـنة.

في هـذه الآونـة، كانـت وظيفـة معلـم اللغـة العربيـة في مدرسـة النجـاح الوطنيـة بنابلـس شـاغرة. فيـأتي إلى إبراهيـم والـده، يقنعـه بالموافقـة عـلى التدريـس هنـاك، فهـذه خدمـة وطنيـة مشـكورة، أضـف إلى ذلـك أن المسـؤولين في المدرسـة، سـيجعلون سـاعات العمـل بحيـث لا يرهقونـه، ثـم إن هـذا العمـل في بلـدة، وإنـه لـون مـن ألـوان الاختبـار، يقطـع فيـه إبراهيـم جـزءًا مـن أوقـات الفـراغ الطويلـة المملـة.

ويكـون رد إبراهيـم عـلى أبيـه بأنـه لا يسـتطيع أن يتصـور نفسـه معلـمًا، فهـذا عمـل لم يخلـق لـه، وسـيكون فيـه خائبًـا لا محالـة. ولكـن أبـاه يبـين لـه أنـه سـيعلم في موضوعـه، فـلا يخـرج عـن نطـاق مـا خلـق لـه.

وإذا بإبراهيـم ذات صبـاح أمـام فريـق مـن الطـلاب، عـلى مقاعدهـم الخشـبية، وإذا بـه يكتـب عـلى اللـوح: «الطقـس جميـل»، ثـم يقـول لأحـد. التلاميـذ: أدخـل (كان الناقصـة) عـلى هـذه الجملـة. فيقـول التلميـذ: «كان الطقـس جميـلًا».

نعم.. كان الطقس جميلاً، فتعكر، وجرت الرياح بما لا تشـتهي السـفن.

(٨)

زاول إبراهيـم مهنـة التعليـم في هـذه المدرسـة سـنة واحـدة، وكان لـه تأثـير في بعـض طلابـه مـن الصفـوف العاليـة، فحبـب إليهـم الشـعر والأدب، ولا أزال أذكـر ذلـك اليـوم الـذي أقبـل فيـه يحدثنـا مبتهجًـا، بـأن بعـض تلاميـذه النجـب، قـد بـدؤوا يمارسـون نظـم الشـعر عـلى يـده.

خـلال هـذا العـام الـدراسي (١٩٢٩-١٩٣٠)، كان إبراهيـم ينظـم الشـعر الوطنـي، فيرسـله صرخـات حافـزة، ونـارًا مشـتعلة. ومـن أشـهر قصائـده في ذلـك الحـين (الثلاثـاء الحمـراء).

ففـي حزيـران سـنة ١٩٣٠ صـدر حكـم الإعـدام عـلى شـهداء فلسـطين الثلاثـة، وذلـك عـلى إثـر ثـورة سـنة ١٩٢٩. وقـد ضج أهـل البـلاد لهـذا الحكـم، وقدمـوا احتجاجاتهـم ورجاءهـم، فلـما يغـنِ ذلـك عنهـم شـيئًا.

وفي نهار الثلاثاء، السابع عشر من حزيران سنة ١٩٣٠، كان التكبير على المآذن، وقرع النواقيس في الكنائس، يتجاوب صداها في أرجاء فلسطين قاطبة، إذ في هذا النهار، نفذ حكم الإعدام بالشهداء الثلاثة، في ثلاث ساعات متوالية. فكان أولهم فؤاد حجازي، وثانيهم محمد جمجوم، وثالثهم عطا الزير. وكان المقرر رسميًّا، أن يكون الشهيد (عطا الزير) ثانيهم، ولكن (جمجومًا) حطم قيده، وزاحم رفيقه على الدور، حتى فاز ببغيته.

وهنا يأخذ الشاعر ريشته ليصور هذا اليوم المخضب بالدماء، أروع تصوير، وليسجل في سفر الشعر الوطن الخالد، مصارع أولئك الشهداء. فتكون قصيدة (الثلاثاء الحمراء).

وكان يوم حفلة مدرسة النجاح السنوية في نابلس، ولم يكن قد مضى على تنفيذ حكم الاعدام بهؤلاء الشهداء أكثر من عشرة أيام، فالنفوس لا تزال ثائرة، والعواطف لا تزال مضطربة، وفي تلك الحفلة، ألقى إبراهيم قصيدته (الثلاثاء الحمراء) وذهل عن الجمهور. وشعر كأنما خرج من لحمه ودمه، فكان يلتقي بروحه وأعصابه، فما انتهى، حتى كان بكاء الناس يعلو نشيجه، ثم تدفقوا خارج القاعة في حالة هياج عظيم، حتى لقد قال بعضهم يومئذ «لو أن إبراهيم ألقى قصيدته في بلد فيه يهود، لوقع ما لا تحمد عقباه». يشير بذلك إلى فرط الحماس الذي أثارته هذه القصيدة في أولئك السامعين.

انطلق إبراهيم في قصيدته هذه من قيود القافية الواحدة، وأوقع وزنها إيقاعًا متنوعًا، وكانت هذه الطريقة

مفضلة لديه في كثير من قصائده. ولقد قسمها إلى ثلاثة أبواب. ففي الباب الأول منها، استعرض عهود محاكم التفتيش في أوروبا، ثم عهود الرقيق فيها، ثم أيام (جمال) السفاح، في سوريا، فإذا كل ما ابتليت به الإنسانية في تلك العهود المظلمة، لا يداني هول ذلك اليوم الرهيب:

لما تعرض نجمك المنحوس

وترنَّحت بعرى الحبال رؤوس

ناح الأذان، وأعول الناقوس

فالليل أكدر، والنهار عبوس

طفقت تثور عواصفُ وعواطفُ

والموت حينا طائف أو خاطفُ

والمعول الأبديّ يمعن في الثرى

ليردهم في قلبها المتحجّرِ

* * *

(يومٌ) أطلَّ على العصور الخاليه

ودعـا: «أمرّ على الورى أمثاليه؟»

فأجابـه يوم: «أجل أنا راويه

لمحاكـم التفتيش، تلك الباغيه

ولقد شـهدت عجائبا وغرائبا

لكـنَّ فيك مصائبا ونوائبا

لم ألق أشـباهًا لها في جورها

فاسـأل سواي، وكم بها من منكر»

* * *

وإذا بيوم راسف بقيوده

فأجاب، والتاريخ بعض شـهوده

«انظر إلى بيض الرقيق وسـوده

ومن شـاء كانوا ملكه - بنقوده

وطن يباع ويشـترى فتحرّرا

ومـشى الزمان القهقرى فيما أرى...

فسـمعت من منع الرقيق وبيعه

نادى على الأحرار يا من يشـتري!»

* * *

وإذا بيـوم حالك الجلباب

مترنح من نشوة الأوصاب

فأجـاب: «كلا، دون ما بك ما بي

أنا في ربا عالية ضاع شـبابي

وشـهدت (للسفاح) ما أبكى دما

ويـل له، ما أظلما لكنما

لم ألـق مثلك طالعا في روعة

فاذهـب، لعلك أنت يوم المحشر»

* * *

(اليـوم) تنكره الليالي الغابرة

وتظـل ترمقه بعين حائره

عجبـا لأحكام القضاء الجائره

فأخفّها أمثال ظلم سـائره

وطن يسـير إلى الفناء بلا رجاء

والـداء ليس له دواء إلا الإباء

إن الإباء مناعة، أن تشـتمل

نفـس عليه، تمت ولما تقهر

وفي البـاب الثـاني مـن القصيـدة، صـور إبراهيـم السـاعات الثـلاث التـي نفـذ فيهـا حكـم الإعـدام، فجعـل كل سـاعة تباهـي بصاحبهـا، وتتحـدث عنـه حديـث البطولـة والبـأس والتضحيـة، وفي هـذا البـاب أيضـا، خلـد ذلـك الموقـف الرائـع، حـين حطـم ثالـث الشـهداء قيـده، ليزاحـم رفيقـه عـلى دوره.

وأما البـاب الثالث، فكان هذا الختام الرائع:

أجسادهم في تربة الأوطان

أرواحهم في جنة الرضوان

وهناك لا شـكوى من الطغيان

وهنـاك فيض العفو والغفران

لا ترج عفوًا من سـواه هو الإله

وهـو الذي ملكت يداه كل جاه

جبروتـه فوق الذين يغرهم

جبروتهم في برهم والأبحر

هـذه هـي القصيـدة التـي قـال بصددهـا الشـاعر (بشـارة الخـوري): «هـذه العواطـف الفياضـة، والصـور الشـعرية البارعـة، يلبسـها إبراهيـم ألوانهـا الممتـازة، للحـزن لونـه، وللعنـف لونـه، وهكـذا إلى مـا لا نهايـة لـه مـن الألـوان التـي ترسـمها النفـس الشـاعرة، أو بالأحـرى النفـس المتألمـة.

وإننـا لنقـرأ هـذه القطـع الذائبـة، فتتخيـل الشـاعر قـد استُشـهِدَ ثـلاث مـرات، مـع كل شـهيد مـرة، أفـلا تـرى هـذه الأجـزاء المتقطعـة مـن نفسـه، والخيـالات السـوداء التـي تطـوف في كل بيـت مـن قصيدتـه، كـما تطـوف الأحـلام السـكرى بـرأس الذيـن قرئـت عـلى مسـامعهم الأحـكام بقتلهـم».

لم تكـد تبـدأ عطلـة العـام الـدراسي الأخـيرة لسـنة ١٩٣٠ حتـى كانـت الجامعـة الأميركيـة في بـيروت قـد عرضـت عـلى إبراهيـم، بوسـاطة الاسـتاذ أنيـس الخـوري المقـدسي، التعليـم في قسـم الأدب العـربي في الجامعـة.

كان مجـرد فكـرة العـودة إلى بـيروت، وآفاقهـا الرحيبـة السـحرية، كفيـلا بـأن يجعـل إبراهيـم يوافـق عـلى مزاولـة التعليـم مـرة أخـرى، وعـن طيـب خاطـر.. فلقـد كان حبـه لهـذا البلـد الطيـب، ولأهلـه الكـرام، حبـا متمكنـا مـن نفسـه، إلى حـد بعيـد، بـل لقـد كانـت بـيروت عنـده بمنزلـة الوطـن الثـاني لـه، يـرى في أهلهـا أهلـه، وفي عشـيرتها عشـيرته.

وكيف لا يكون لهذا البلد في نفس إبراهيم مثل هذا المكان الرفيع، وفيه تفتحت زهرة شبابه أول ما تفتحت:

أول عهدي بفنون الهوى

بيروت، أنعم بالهوى الأول

وقيل هل يرشد قلب غوى

والرشد غي في الصبا المقبل

مددت، لما قلت قلبي ارتوى،

يدي فردته عن المنهل

بيروت، لو شئت دفعت النوى

طوعًا، ولم أهجرك، فالويل لي

وكيف لا يمتلئ قلب إبراهيم بحب أهل هذا البلد الكرام، وقد أنزلوه منهم في حبات القلوب وفي سواد العيون.

(٩)

وانتقل إلى الجامعة الأميركية، فدرس فيها عامين، نظم خلالها أروع قصائده التصويرية، مما يدخل في باب الموضوعيات من شعره. ولإبراهيم في هذا الباب قصائد فذة، تفيض بالصور الحية الناطقة، وسنعرض لبعضها فيما بعد.

ولقد عادت المرأة، أو بالأحرى، عاد الجمال يحرك قلب إبراهيم في بيروت، فيوحي إليه بأرق الشعر وأجزله. ومسارح الجمال في بيروت مختلفة الألوان، متعددة الصور وهي هناك تكاد تكون مكشوفة النقاب، لا تختبئ وراء حجاب. وابراهيم نشأ في بلد متمسك بتقاليده وعاداته أشد التمسك، فهو يسدل دون المرأة ستارًا كثيفًا نسجه. ومن هنا، كانت بيروت مهبط وحيه فيما قاله من شعر في المرأة.

وفي غادة إشبيلية أندلسية، كانت في بيروت، نظم إبراهيم فيما نظم من شعر غزلي في ذلك الحين، عدة قصائد وهو يعترف بأن انجذابه إلى هذه الغادة، قد لا يكون بدافع جمالها، وخفة روحها، بمقدار ما كان يقرأه في خلقها من الدم العربي، وما كان يلاحظه من الفن العربي في ثيابها ورقصاتها:

أفدي بروحي غيد إشبيلية

وإن أذقن القلب صاب العذاب

* * *

علقت منهن بترب النهار

وجهًا، وصِنْوِ الليل فرعًا وعين

في مثلها يخلع مثلي العذار

ولا يبالي كيف أمسي، وأين!

أشرب مـن فيها وكأس العقار

معًا، فكيف الصحو من سـكرتين

لهفي عليها، يوم شـط المزار

وسـاقها البين إلى (النير بين)

* * *

ودعتها، ومهجتي مشفيه

لم يشـفني رشف الثنايا العذاب

وودعت بالنظرة المغريه

تصحـب لبي معها في الركاب

يـا أعصر الأندلس الخاليات

قـد فاز من عاش بتلك الربوع

أهكـذا كانت هناك الحياة

مترفة الأيام، ملء الضلوع

أهكـذا الفتنة في الغانيات

ونشوة الوصل، وحر الولوع

لـئن مضى عهد ذوينا وفات

ولم يعـد من أملٍ في الرجوع

* * *

فذمتي بعهدهم موفيه

أردّ ماضيهم ببذل الشـباب

أنـا (ابن زيدون) وتصبو له

(ولّادة) في دمها والإهاب

* * *

لا بد لي إن عشـت أن أعطفا

على ربا الأندلس الناضرة

واجتلي أشـباح عهد الصفا

راقصة فنانة ساحرة

هنـاك لا أملك أن أذرفا

دمعـي على أيامنا الغابرة

عسـاك يا دمع محب وفي

ترد جنات المنى زاهرة

* * *

يومئـذ ألقي على عوديه

لحـن الهوى أمزجه بالعتاب

أفدي بروحي غيد إشـبيليه

وإن أذقـن القلب صاب العذاب

وفي هذه الإشـبيلية الحسـناء كانت قصيدته (صورتها المكبرة):

برَّح بي الشـوق، فلما طغى

فزعت للرسم فكبرته

وما شفا داء ولكنما

قلبي شـكا البعد فعللته

ولم أجد في الرسـم أخلاقها

جربتها حينًا وجربته

منتظـري في غرفتي دهره

جـود بخيل ما تعودته!

ظل وقد ناجيته باسـمًا

ولم يمانع حين قبلته

* * *

عرفت للرسام إبداعه

وعدت للرسم فأنكرته

قد فاته دَلٌّ تعرفته

فيهـا ومطل كم تذوقته

لو جاءني الرسـام بالمشتهى

كفرت بالله وأشركته

* * *

وأثنـاء إقامتـه في بـيروت، تعـرف بالدكتـور (لويـس نيـكل البوهيمـي)، وهـو مســتشرق تخصـص في الغـزل العـربي، فـكان يتنقـل بـين عواصـم الـشرق والغـرب، باحثًـا في مكاتبهـا الكـبرى عـن الكتـب المتعلقـة بموضوعـه، وكان مـن نتيجـة ذلـك، أن ترجـم إلى اللغـة الانكليزيـة كتـاب (طـوق الحمامـة)

لابـن حـزم الأندلـسي. وكان حـين تعـرف بإبراهيـم، عـلى نيـة الابتـداء بتصحيـح كتـاب (الزهـرة) لابـن داود الأصفهـاني، وتعليـق حواشـيه، وتنظيـم فهارسـه. ولمـا اطلـع إبراهيـم عـلى النسـخة الفوتوغرافيـة للكتـاب، لمـح أخطـاء نسـخية هنـا وهنـاك، فأخـذ ينبـه الدكتـور (نيـكل) إلى صحيحهـا - أو يـرده إلى مرجـع ضبطهـا – وقـد كان إبراهيـم كثـير المحفـوظ، مطلعًـا اطلاعًـا واسـعًا عـلى الشـعر القديـم، مدمنًـا لقـراءة عيـون كتـب الأدب العـربي. فلـم تمـض بضـع دقائـق حتـى دعـاه هـذا المسـتشرق إلى العمـل معـه في تصحيـح الكتـاب وإخراجـه باسـميهما معًـا. وبـاشرا العمـل في اليـوم الثـاني، وفي بضعـة شـهور أنجـزا عملهـما فيـه حيـث طبـع الكتـاب سـنة ١٩٣٢.

(١٠)

في نهايـة العـام الثـاني لتدريسـه في الجامعـة، قـدم إبراهيـم اسـتقالته مـن العمـل، وعـاد إلى فلسـطين، حيـث زاول مهنـة التعليـم في المدرسـة الرشـيدية في القـدس. وفي هـذا الحـين، ضـاق بعملـه أشـد الضيـق، فنفـس عـن الكـرب الـذي لحقـه مـن هـذه المهنـة بقصيدتـه (الشـاعر المعلـم)، معارضًـا فيهـا قصيـدة المرحـوم أحمـد شـوقي «قـم للمعلـم وفـه التبجيـلا».

صـاغ إبراهيـم هـذه القصيـدة في قالـب فكاهـي عـذب، صـور فيـه مـا كان يكابـده مـن مشـقة التعليـم، والجهـد الـذي كان يبذلـه، والعنـاء الـذي كان يلاقيـه مـن جـراء ذلـك كلـه.

الشاعر العلم

شـوقي يقول وما درى بمصيبتي

«قـم للمعلم وفه التبجيلا»

اقعـد فديتك هل يكون مبجلًا

من كان للنشـئ الصغار خليلا

ويـكاد يقتلني الأمير بقوله:

كاد المعلم أن يكون رسـولا

لو جرب التعليم شـوقي ساعة

لقضي الحياة شـقاوة وخمولا

حسـب المعلم غمّة وكآبة

مـرأى (الدفاتر) بكرة وأصيلا

مائـة على مائة إذا هي صلحت

وجد العمى نحو العيون سـبيلا

ولـو أن في التصليح نفعًا يرتجى

وأبيـك لم أك بالعيون بخيلا

لكـن أصلح غلطة نحوية

مثـلًا، واتخذ (الكتاب) دليلا

مستشـهدا بالغر من آياته

أو (بالحديـث) مفصلًا تفصيلا

وأغوص في الشـعر القويم فأنتقي

ما ليس ملتبسـا ولا مبذولا

وأكاد أبعث سـيبويه من البلى

وذويـه من أهل القرون الأولى

فـأرى (ابن...) بعد ذلك كله

رفـع المضاف إليه والمفعولا

لا تعجبـوا إن صحت يوما صيحة

ووقعـت ما بين (البنوك) قتيلا

يـا من يريد الانتحار وجدته

إن المعلـم لا يعيش طويلا

* * *

وفي أواخـر سـنة ١٩٣٢، وقبـل انتهـاء الفصـل الـدراسي الأول، ألـحَّ عليـه السـقم، ولازمتـه العلـة، فانقطـع عـن التدريـس، وظـل طريـح الفـراش، إلى أن اشـتدت وطـأة المـرض، فأشـار الأطبـاء بـضرورة نقلـه إلى المستشـفى، وإجـراء عمليـة جراحيـة في معدتـه. ولقـد كان مـن خطـورة شـأن هـذه العمليـة أن نفـض الجرَّاح يديـه مـن نجاة مريضـه مـن المـوت بعدهـا، لما كان عليـه إبراهيـم مـن النحـول والضعـف. ولكـن اللـه في السـماء، والأمـل في الأرض! فقـد أجريـت العمليـة بالرغـم مـن الشـك الكبـير في نجاتـه مـن خطرهـا. وتشـاء حكمـة اللـه، أن ينجـو إبراهيـم مـن المـوت المحقـق، ولقـد أقـرّ الطبيـب يومئـذ، بـأن سـلامة مريضـه كانـت مـن معجـزات اللـه، لا شـأن لفـن الطـب فيهـا ولا لحـذق الطبيـب، إذ كانـت حـال إبراهيـم، فـوق هذيـن كليهـما.

وتماثـل للشـفاء، وحانـت السـاعة التـي سـيغادر فيهـا المستشـفى، فشـيع الطبيـب هـذا (المولـود الجديـد)، كـما كان يسـميه، مهنئًـا والديـه بـه.. وخـرج إبراهيـم وفي جيبـه ورقـة عليهـا هـذه الأبيـات:

إليـك توجهت يا خالقي

بشـكر على نعمة العافية

إذا هـي ولت فمن قادر

سواك على ردها ثانية

وما للطبيب يد بالشـفاء

ولكنها يدك الشافية

تباركت أنت معيد الحياة

متى شئت في الأعظم البالية

وأنت المفرج كرب الضعيف

وأنت المجير من العادية

* * *

بلى، لقد كان إبراهيم يؤمن بالله إيمانًا عميقًا صادقًا، وقد ابتلاه ربه بالحرمان من نعمة العافية، وهو في ريعان الشباب، فما وجده إلا صابرًا متفائلًا. وإنك لتتصفح ما خلفه من مآثره الشعرية والنثرية، فتراه قد عرض فيها مرارًا عديدة لذكر مرضه وسقمه، ولكنه عرض مرح مبتسم، لا روح للتشاؤم فيه، ولا أثر لشكوى الزمان، إذ كان المرح والابتسام خلقة في إبراهيم، فلم يكن لينظر إلى الدنيا إلا من وجهها الضاحك المشرق. وانظر إلى هذه الأبيات لترى كيف كان يواجه تنكر العافية له:

وطبيب، رأى صحيفة وجهي

شاحبًا لونها، وعودي نحيفا

قال: لا بدّ من دم لك

نعطيه نقيا ملء العروق عنيفا

لك ما شئت يا طبيب ولكن

أعطني من دم يكون خفيفا

ضعف في البنية شديد، قد يبعث في غير إبراهيم التشاؤم والضجر، ولكنه هو، القوي بروحه، المرح بطبيعته، لا يدع النكتة تفلت منه وهو في أشد حالات المرض: «أعطني من دم يكون خفيفا».

غادر إبراهيم المستشفى موفور الصحة، وعاد إلى بلده بعد أن قدم استقالته إلى المدرسة الرشيدية في القدس، وقد عزم عزما أكيدا على عدم العودة إلى هذه المهنة: مهنة التعليم، مرة أخرى.

أمضى عامين في نابلس بعد ذلك، خدم خلالها مدة في دائرة البلدية، وفي هذين العامين، نظم إبراهيم مقطوعاته الوطنية التي كان يوالي نشرها في جريدة (الدفاع)، والتي كان يقبل عليها القراء بشغف عظيم، لما فيها من تصوير صادق لوضع فلسطين الخطير، وتفكك الأمة المريع، في تلك الفترة من الزمن.

(١١)

وفي سنة ١٩٣٦ استلم إبراهيم عمله الجديد في القسم العربي في اذاعة القدس. وقبل الحديث عن أعماله هناك، أوثر أن أقف عند. شعره قليلاً.

إذا قرأت شعر إبراهيم، تجلت لك نفسه على حقيقتها لا يحجبها عنك حجاب، ذلك أنه كان ينظر نظرًا دقيقًا في جوانب تلك النفس، ثم يصور ما يعتلج فيها من عواطف وخلجات، كأصدق ما يكون التصوير. ومما كان يعينه على البراعة والصدق في التعبير، علم غزير بفنون الكلام وأساليبه، وهذا العلم، كان نتيجة لاطلاعه الواسع على المآثر الأدبية الرفيعة، من قديمة وحديثة، إلى جانب القرآن الكريم، والحديث الشريف.

وما أعرف كتابا أدبيًا كان أحب إليه من كتاب «الأغاني»، فقد كان يرى فيه دنيا تغمرها الحياة على اختلاف ألوانها، وناهيك «بالأغاني» من كتاب أدبي توفرت فيه المادة، وتنوع الأسلوب، واتسع فيه مجال القول في الأخبار والنوادر الأدبية على اختلافها.

وكما كان كتاب «الأغاني» من أحب كتب الأدب العربي إلى إبراهيم، فقد كان «المتنبي» من ناحية، «والعباس بن الأحنف» من ناحية أخرى، من أحب الشعراء إليه وأقربهم من قلبه. وأما «شوقي» في الشعراء المعاصرين فهو سيد المكان في ذلك القلب.

يمكنك أن تقسم شعر إبراهيم إلى ثلاثة أقسام: الغزليات، والموضوعيات، والوطنيات. وأما المراثي فإنك تستطيع أن تضعها في قسم الوطنيات من شعره، إذ كثيرًا ما كان يأخذ من مناسبة الرثاء، نُهزة يتطرق فيها إلى القول في قضية فلسطين، وفي أحوال هذه البلاد المنكودة التي ابتليت بشتى الأدواء، فإذا المرثية، إلا أقلها، شعر وطني سياسيّ.

لقد مررنا بالقارئ على مقدار غير قليل، في هذا الكتيب، من غزليات إبراهيم. وهنالك مساجلاته الغزلية المعروفة مع صديقيه الشاعرين، جلال زريق، وأبي سلمى ولطالما نشرت مساجلات إبراهيم وأبي سلمى في صحف فلسطين، فكان فيها غذاء لناشئة الأدب، وإغراء لهم بقول الشعر ومعاطاته.

أما موضوعياته، فإنها تمتاز بعمق الفكرة، ودقة التصوير، وقد حلق فيها إلى آفاق الشعر العالي، هنالك «الشهيد» و«الفدائي» و«الحبشي الذبيح» وغيرها. ولعل واسطة العقد في موضوعياته، قصيدة «مصرع بلبل» وهي فتح جديد في القصة الشعرية، نلمس فيها تأثر إبراهيم بالأدب الغربي دون أن يفقد مميزات خياله الخاص، وتعبيراته الشعرية الخاصة. وهو يمتاز بهذه الناحية في شعره فما كان أبغض إليه من التقليد في المعنى أو الأسلوب.

وفي قصيدة «الشهيد»، ينقلنا إبراهيم بدقة وصفه، وروعة تصويره إلى ما يثور في نفس «الشهيد» من عواطف، وتضحية، واستقتال في سبيل الواجب الأسمى؛ لا يبتغي من وراء ذلك ذيوع اسم، ولا اكتساب

صيـت، وإنمـا هـو عنـصر الفـداء، وجوهـر الكـرم، صيغـت منهـما نفـس الشـهيد، فهـان عندهـا المـوت في سـبيل اللـه والوطـن.

عبس الخطب: فابتسمْ

وطغى الهول فاقتحمْ

رابط الجأش والنهى

ثابت القلب والقدم

لم يبالِ الأذى ولم

يثنه طارئ الألم

نفسه طوع هِمّة

وجمت دونها الهمم

تلتقي في مزاجها

بالأعاصير والحمم

تجمع الهائج الخضمّ

إلى الراسخ الأشم

وهـي من عنصر الفداءومن جوهر الكرم

ومن الحق جذوة

لفحها حرَّر الأمم

* * *

سار في منهج العلا

يطرق الخلد منزلا

لا يبالي، مكبّلا

ناله أم مجندلا

فهو رهن بما عزم

* * *

ربما غاله الرّدى

وهو بالسجن مرتهن

لم يشيع بدمعة

من حبيب ولا سكن

ربما أدرج التراب

سليبًا من الكفن

لست تدري بطاحها

غيّبته أم القنن

لا تقل أين جسمه

واسمه في فم الزمن

إنه كوكب الهدى

لاح في غيهب المحن

أرسل النور في العيون،

فما تعرف الوسن

ورمى العار في القلوب

فما تعرف الضغن

* * *

أي وجه تهلّلا

يرد الموت مقبلا

صعّد الروح مرسلا

لحنه ينشد الملا

أنا لله والوطن

* * *

ومن موضوعياته الرائعة قصيدة «الحبشي الذبيح»، وهي صورة حية ناطقة، يرسم فيها إبراهيم حالة ذلك «الديك الحبشي» الأليمة، حين يُذبح، ويأخذ يصفق بجناحيه، ويجري من هنا وهناك، مزوَّر الخطى، كأنما هو يلحق بالحياة التي استلبت منه. ولقد أوحى إليه بهذا الموضوع العنيف، وقوفه يوما برجل على جانب الطريق في بيروت يذبح ديوكا حبشية يعدها لرأس السنة. وإذا بالنفس الشاعرة يروعها ألَّا يقوم السرور إلا على حساب الألم، وإذا بها تفيض بأقوى الشعر التصويري، الحي.

الحبشي الذبيح

برقت له مسـنونة تتلهبُ

أمـضى من القدر المتاح وأغلبُ

حَـرَّتْ فلا خدّ الحديد مخضّب

بـدم ولا نحر الذبيح مخضّب

وجـرى يصيح مصفقًا حينًا فلا

بـصرٌ يزوغ ولا خطى تتنكب

حتى غلت بي ريبة فسـألتهم

خان السـلاح، أم المنية تكذب

قالـوا حلاوة روحه رقصت به

فأجبتهـم: ما كل رقص يطرب

هيهـات دونكه قضى فإذا به

صَعِقٌ يشرق تارة ويغرب

وإذا بـه يزور مختلف الخطى

وزكيّة موتورة تتصبب

يعـدو فيجذبه العياء فيرتمي

ويـكاد يظفر بالحياة فتهرب

متدفق بدمائه متقلب

متعلق بدمائه متوثب

أعذابه يدعى حلاوة روحه؟

كم منطـق فيه الحقيقة تُقلب

إن الحـلاوة في فم متلمظ

شرها ليشرب ما الضحية تسـكب

هـي فرحة العيد التي قامت على

ألم الحيـاة، وكل عيد طيّب

* * *

ولإبراهيـم شـعر كثـير مـن هـذا النمـط، فيـه نغـمات وصـور مبتكـرة، تقـف بـه في مصـاف الشـعراء المصوريـن الممتازيـن.

ونلتفـت الآن إلى إبراهيـم شـاعر الوطـن، الـذي سـجل آلام فلسـطين وآمالهـا خـلال الانتـداب الإنجليـزيّ، كـما لم يسـجله شـاعر فلسـطيني مـن قبـل.

انظـر إليـه وقـد خلـد ثـورة فلسـطين وشـهدائها سـنة ١٩٢٩ في قصيـدة

(الثلاثـاء الحمـراء)، ثـم يـوم عـاد في الذكـرى الرابعـة لهـؤلاء الشـهداء، فخلدهـم مـرة أخـرى في قصيـدة «الشـهيد». كل ذلـك في شـعر لاهـب حـماسي، فـلا بـكاء ولا اسـتخذاء، وإنمـا هـي صرخـات مدويـة مجلجلـة، تحفـز الهمـم، وتثـير الشـعور بالعـزة والإبـاء:

انفـروا أيها النيـام فهذا يوم لا ينفع العيون كراها

كشـفت منكم المقاتل وامتـدت إليها المثقفات قناها

فنبئـوني عن القوي متـى كان رحيما، هيهات من عزّ تاها

لا يلين القوي حتى يلاقي مثله عزة وبطشـا وجاها

لا سـمت أمة دهها خطوب ارهقتها ولا يثور فتاها

وأمـا بيـع الأرض، فلـم يـزل إبراهيـم يصـور لقومـه الخطـر الـذي ينتظـر البـلاد مـن وراء البيـع، ولم يـزل يفتـح عيونهـم عـلى الـشر الـذي عـم واسـتحكم مـن جـراء ذلـك.

أعداؤنـا منذ أن كانوا، صيارفة

ونحـن منذ هبطنا الأرض زُرَّاع

يـا بائع الأرض لم تحفل بعاقبة

ولا تعلمـت أن الخصم خداع

لقد جنيت على الأحفاد، وَالَهَفِي

وهم عبيد وخدّام وأتباع

وغرّك الذهب اللَّماع تحرزه

إن السراب كما تدريه لماع

فكر بموتك في أرض نشأت بها

واترك لقبرك أرضًا طولها باع

وقد التفت إبراهيم مرات عديدة في شعره، إلى هذه الناحية. وحين نشرت الصحف أن زعيم الهند (غاندي)، قد أنذر إنجلترا بالصيام مدى الحياة، ما لم تغير خطتها السياسية في الهند، راح إبراهيم يغمز ويقارن بين زعيم هنا، وزعيم هناك:

حبذا لو يصوم منا زعيم

مثل (غندي) عسى يفيد صيامه

لا يصم عن طعامه، في فلسطين

يموت الزعيم لولا طعامه

ليصم عن مبيعه الأرض يحفظ

بقعة تستريح فيها عظامه

وهـو في رثائـه للمغفـور لـه الملـك فيصـل، يـضرب عـلى هـذا الوتـر نفسـه، فيقـول مشـيرًا إلى اسـتقبال الجثـمان الطاهـر في فلسـطين:

مـا الذي أعددت من طيب القرى

يا فلسـطين لضيف معجل

لا أري أرضًـا نلاقيه بها

قد أضاع الأرض بيع السـفل

فاسـتري وجهك لا يلمح على

صفحتيـه الخزي فوق الخجل

ولم يكـن ليـدع مناسـبة تمـر، دون أن يشـير إلى هـذا الـداء العضـال، الـذي بليـت بـه فلسـطين. ولشـد مـا صـب نقمتـه عـلى تلـك العصبـة الحقـيرة، عصبـة السـماسرة، التـي يقـوم عـلى يديهـا ضيـاع البـلاد:

أما سـماسرة البلاد فعصبة

عـار على أهل البلاد بقاؤها

إبليس أعلن صاغرا إفلاسـه

لمـا تحقق عنده إغراؤها

يتنعمون مكرمين كأنما

لنعيمهم عم البلاد شقاؤها

هم أهل نجدتها وإن أنكرتهم

وهم - وأنفك راغم - زعماؤها

ولقد كانت تروعه تلك الحزبية التي يضطرم وقودها في البلاد، فلا ينتج منها إلا تفكك الأمة وشقاقها، وفي ذلك ما فيه من إعاقة السير نحو الهدف الواحد:

وطني، أخاف عليك قومًا أصبحوا

يتساءلون من الزعيم الأليق

لا تفتحوا باب الشقاء فإنه

باب على سود الحوادث مغلق

والله لا يُرجى الخلاص وأمركم

فوضى، وشمل العاملين ممزق

ولطالما نقد أصحاب الأحزاب في شعره وندد بهم، لا يخص فريقًا دون فريق، وإنما يوجه القول إليهم جميعًا.

ما لكم بعضكم يمزق بعضًا

أفرغتم من العدو اللدود؟

اذهبوا في البلاد طولًا وعرضًا

وانظروا ما لخصمكم من جهود

والمسوا باليدين صرحًا منيعًا

شاد أركانه بعزم وطيد

كل هذا استفاده بين فوضى

وشقاق، وذلة، وهجود

واشتغال بالترهات وحب الذات

عن نافع عميم مجيد

شهد الله أن تلك حياة

فُضِّلَت فوقها حياة العبيد

وما كان ليرفع صوته إلا مع الحق، لا ليرضي هذا، أو ليجامل أهواء ذاك، وإنما هي العاطفة الصادقة نحو وطنه، تتكلم في شعره:

إن قلبي لبلادي

لا لحزب أو زعيم

لم أبعه لشقيق

أو صديق لي حميم

ليس مني لو أراه

مرة غير سليم

ولساني كفؤادي

نيط منه بالصميم

لم أهب غيظ حسودٍ

لا، ولا كيد لئيم

غايتي خدمة قومي

بشقائي أو نعيمي

ومـا كان أنـكأ لقلـب إبراهيـم مـن خمـود العزائـم في حامـلي عـبء القضيـة الوطنيـة، ووقوفهـم عنـد تقديـم (البيانـات) و(الاحتجاجـات)، لا يتعدونهـا إلى غيرهـا مـن الأعـمال المجديـة:

أنتم المخلصون للوطنية

أنتـم الحاملون عبء القضية

أنتـم العاملون من غير قول

بـارك الله في الزنود القوية

(وبيان) منكم يعادل جيشًـا

بمعدات زحفه الحربية

(واجتـماع) منكم يردّ علينا

غابـر المجد من فتوح أمية

مـا جحدنا أفضالكم غير أنا

لم تزل في نفوسـنا أمنية

في يدينـا بقية من بلاد

فاسـتريحوا كي لا تطير البقية

وبذلاقـة ورشـاقة كان إبراهيـم يتغلغـل بقلمـه إلى صميـم الأشـياء فيزيـح عنهـا السـتر ويبـين مـا خفـي وراءه مـن حقائـق مـرة. ويـا لهـا مـن مـرارة يرسـلها في شـعره متأملًـا لمظاهـر العبـث التـي كان يراهـا تغلـب عـلى ميـول الأمـة:

أمامك أيها العربي يوم

تشـيب لهوله سود النواصي

وأنـت كما عهدتك لا تبالي

بغـير مظاهر العبث الرخاص

مصيرك بات يلمسه الأداني

وسار حديثه بين الأقاصي

فـلا رحب القصور غدًا بباق

لسـاكنها، ولا ضيق الخصاص

لنـا خصمان، ذو حول وطول

وآخر ذو احتيال واقتناص

تواصـوا بينهم فأتى وبالًا

وإذلالا لنا ذاك النواصي

مناهج للإبادة واضحات

وبالحسنى تنفّذ والرصاص

وأمـا وعـد بلفـور، وأمـا هجـرة اليهـود، إلى هـذا الوطـن المنكـود، فلـم يبرحـا مجـالًا للقـول ذا سـعة في شـعر إبراهيـم، وهدفًـا يرمـي إليـه، ويحـوم حواليـه:

أرى عددا في الشـؤم لا كثلاثة

وعـشر، ولكن فاقهُ في المصائب

هو (الألف) لم تعرف فلسـطين ضربة

أشـدُّ وأنكى منه يومًا لضارب

يهاجـر (ألف) ثم (ألف) مهربا

ويدخلُ ألفٌ سـائحا غير آيب

وألف جواز ثم ألف وسـيلة

لتسـهيل ما يلقونه من مصاعب

وفي البحـر آلاف، كأن عبابه

وأمواجه مشـحونة في المراكب

بنـي وطني، هل يقظة بعد رقدة

وهل من شـعاع بين تلك الغياهب!

ولـئن شـاءت الأقـدار أن تبتـلى الأقطـار العربيـة (بأشـعب) واحـد، فهنـا، في فلسـطين، يتبـارى أشـعبان:

ذهب الذين عهدتهم

لا يصبرون على الهوانِ

في مصر يطمع أشعب

وهنا تبارى أشعبان

وهنا التخاذل في الشـدائد

والتشاؤم والتواني

والنفس يقتل عزمها

طول التعلل بالأماني

وهكـذا تـرى شعر إبراهيـم الوطنـي شـعرًا يحمـل طابعًـا فلسـطينيًا خاصًّـا، كان حتـما أن تطبعـه بـه أحـوال البـلاد المضطربـة في هـذا العهـد المظلـم مـن عهـود فلسـطين. ومـا كان إبراهيـم ليفـوز بلقـب شـاعر الوطـن، وشـاعر

فلسطين، لو لم يسجل قضية بلاده في شعره القوي، الذي يمتاز بذلك الطابع الفلسطيني الخاص، ولو لم تنعكس في ذلك الشعر، أصدق صورة لهذا الوطن في هذا العهد.

* * *

تأسست إذاعة القدس سنة ١٩٣٦، ووقع الاختيار على إبراهيم ليكون مراقبًا للقسم العربي فيها، فاحتضن هذا القسم، ولفه تحت جناحيه، وتعهده بعنايته مدة أربع سنوات.

وفي سنة ١٩٣٧ تزوج إبراهيم، فكان هانئًا في بيته، سعيدًا بعاطفة جديدة مقدسة، هي عاطفة الأبوة، إذ ولد له (جعفر) ثم ولدت (عريب).

أقبل إبراهيم على عمله في الإذاعة بكل قلبه، إذ كان مثل هذا العمل يوافق ذوقه ويمشي مع ميوله، ولم تمض مدة يسيرة على إشرافه على البرامج العربية، حتى كانت تلك البرامج مرآة ينعكس عليها ذوق هذه البلاد، وآراء أهلها العرب. وكان أكبر همه أن تكون الأحاديث قريبة من مستوى العقول على اختلاف طبقاتها، لا سيما الأحاديث الأخلاقية، فكان يصل إلى هذا الغرض التهذيبي، بطريقة لا يشك في نجاحها، وهي طَرْقُ هذه الموضوعات من إحدى نواح ثلاث: الآية القرآنية، والحديث الشريف، والمثل المشهور. ولكل من هذه النواحي أثرها البعيد في العقليات المختلفة لأهل المدن والقرى على السواء، لما لها من علاقة ماسة بالحياة الاجتماعية.

الأستاذ إبراهيم طوقان أمام المذياع

ولقد كان لإبراهيم في الإذاعة أحاديث أدبية كثيرة، شائقة إلى حد بعيد، وكانت له مناظرات أدبية، يشترك فيها مع بعض الأدباء، أضف إلى ذلك قصصًا وروايات تمثيلية، كان يضعها بنفسه، وأناشيد، منها ما كان ينظمه لبعض البرامج الخاصة، كنشيد «أشواق الحجاز» والنشيد الذي وضعه في رثاء المغفور له الملك غازي، ومنها ما كان ينظمه لأحاديث الأطفال.

لم تكن الوظيفة لتقعد بإبراهيم عن تقديم رسالته إلى هذا الوطن الذي تفانى في حبه، وجمع له همّ قلبه. ولئن كانت الوظيفة قد اعترضت لهاة بلبل الوطن الغريد، وحالت دون تسلسل أغانيه الوطنية الشجية، التي طالما أيقظت القلوب النائمة، وألهبت النفوس الهامدة،

فلـم تكـن لتسـتطيع أن تحـول دون حبـه لهـذا الوطـن، وبذلـه أقـصى مجهـوده لخدمـة أمتـه عـن طريـق الإذاعـة.

ولعـل مـن أهـم مـا قـام بـه هنـاك، تصديـه لفئـة غـير عربيـة، كانـت تسـعى سـعيها لتنشـيط اللغـة العاميـة، وجعلهـا اللغـة الغالبـة عـلى الأحاديـث العربيـة المذاعـة. وكانـت حجتهـا في ذلـك، أن الإذاعـة لا يمكنهـا أن تحقـق الغـرض الـذي هدفـت إليـه، وهـو نفـع الطبقـة المتوسـطة، إذا جـرت عـلى اسـتعمال اللغـة الفصحـى، لأن هـذه الطبقـة مـن أهـل المـدن والفلاحـين، لا تحسـن اللغـة الفصحـى، عـلى حـد تعبـير أصحـاب القـول بتنشـيط اللغـة العاميـة، ولا تفهـم اللغـة العربيـة (القديمـة) التـي جـرى عليهـا المذيـاع.

وقـف إبراهيـم وقفـة حازمـة أمـام هـذا الـرأي، ونقضـه يومئـذ بحجـج دامغـة، أظهرهـم فيهـا عـلى أن المذيـاع لم يجـر عـلى اللغـة العربيـة القديمـة، وأنـه ليـس في بـلاد العـرب مـن يعـرف هـذه اللغـة بالمعنـى الـذي قصـده أصحـاب القـول باللغـة العاميـة، غـير أفـراد متخصصـين. وهـي عندنـا لغـة الجاهليـة التـي قـضى عليهـا القـرآن بأسـلوبه الجديـد المبتـدع. وإن عندنـا اليـوم لغـة عربيـة صحيحـة يصطنعهـا المؤلفـون ومحـررو الجرائـد، ويفهمهـا المتعلـم والأمـي عـلى السـواء. وأن الفلاحـين، وجلهـم مـن الأميـين، لتقـرأ عليهـم الجريـدة، فيناقشـون القـارئ في افتتاحيتهـا. ولا يعقـل أن يناقـش المـرء في شيء لم يفهمـه. هـذا وإن العـرب، مسـلمين ومسـيحيين، يدينـون بالقوميـة؛ وهـذا مـشروع غايتـه القضـاء عـلى اللغـة العربيـة، وهـي عندنـا كل مـا بقـي مـن ذلـك الـتراث الطويـل العريـض الـذي اجتمـع لنـا مـن الفتوحـات والحضـارات والعلـوم والآداب والفنـون. فـما مـن عاقـل اليـوم

يعرف قدر نفسه، ويعتز بعربيته، يرضى عن العبث بهذا التراث الباقي، والقضاء عليه بيده.

بهذه الصراحة التي عرفت لإبراهيم في كل موقف ذي خطر، هزمت تلك الفئة التي اعترفت على إثر ذلك، بأن إبراهيم يحتاج إلى جلسات أخرى، لتتزعزع أركان عقيدته في لغته.. وأستغفر الله، وحاشا لإبراهيم.

ولشد ما لقي من صعوبات أثناء عمله، إذ كانت فلسطين خلال السنوات الأربع التي خدم فيها في الإذاعة، في ظرف دقيق جدًّا. ففي السنوات الثلاث الأولى، كانت الثورة في فلسطين قائمة على ساقها، وفي السنة الرابعة، كانت الحرب العالمية الأخيرة.

أما الصعوبات التي لقيها في عمله أثناء الثورة، فتنحصر في ذلك الشغب الذي كان يدور حوله من بعض

الجهات اليهودية، ووقوفها له بالمرصاد في كل ما يذيعه من أحاديث، أو ما يذيعه غيره من المحدثين العرب. فكانت تلك الجهات اليهودية تخرج كل ما يقال تخريجًا سياسيًّا، وتشكل من القصة ذات اللغة البسيطة، والوضع المحكم، شعوبًا ودولًا، وحكومات وانتدابات. ولم تكن لترى في الأحاديث الأخلاقية، إلا تحريضًا تحت قناع ديني، وأما الدعاية فقد كانت في رأيها مبثوثة في الموضوعات التاريخية. زد على ذلك، قول تلك الجهات اليهودية إن الأحاديث النبوية، والأمثال المشهورة التي يقدمها المحدثون العرب، فيها الخطر كل الخطر، إذ يطلب فيها من الأمهات أن ينشئوا أطفالهم بعضلات قوية. ومنشأ الخطر، على زعمها،

هـو أن تلـك التنشـئة القويـة، إنمـا يقصـد مـن ورائهـا المقـدرة في المسـتقبل عـلى المقاومـة.

وعـن الطريـق الأقـصر، فالبرنامـج العـربي الـذي كان يـشرف عليـه إبراهيـم، مسـخر للتحريـض، كـما كانـت تزعـم تلـك الجهـات اليهوديـة.

وهكـذا كانـت توضـع في الميـزان، جـل أحاديـث القسـم العـربي في الإذاعـة، فيناقـش إبراهيـم فيهـا، ويحاسـب عليهـا ولكنـه كان يقـف أمـام ذلـك كلـه راسـخ القـدم.

وانتهـت الثـورة، وقامـت الحـرب العالميـة، فكانـت الرقابـة ومـا أدراك مـا الرقابـة.

ومـن قبـل بعـض المشرفـين عليهـا يومئـذ، قامـت الدعايـة السـيئة، وقـام التحريـض ضـد إبراهيـم، واسـتطاع هـؤلاء أن ينالـوا منـه مـا لم يسـتطعه اليهـود، فقـد عرفـوا مـن أيـن تـؤكل الكتـف، وأشرعـوا أنيابهـم، وبـدؤوا ينهشـون، ويتلمظـون.

وكانـت قصـة (عقـد اللؤلـؤ) التـي قدمهـا إبراهيـم في المذيـاع، وكان مـن تأويلهـا وتأويـل اسـم وضعـه إبراهيـم لأحـد أبطالهـا مـا كان، فـإذا بكلمـة (الأمانـة) في تلـك القصـة، تشـهر سـلاحًا في وجـه إبراهيـم، أو بالأحـرى في ظهـره، مـن قبـل مـن لا يعـرف قيمـة لمعنـى الأمانـة المقـدس.

ومـن شـاء أن يعـرف شـيئًا عـن قصـة (عقـد اللؤلـؤ) فليرجـع إلى كتـاب (الاعتبـار) لأسـامة بـن منقـذ صفحـة (١٧٨)، فمـن هنـاك اقتبـس إبراهيـم هـذه القصـة.

تكاتفـت جمـوع الـشر عـلى إبراهيـم مـن هنـا وهنـاك، فأقيـل مـن عملـه في أول أكتوبـر سـنة ١٩٤٠.

وإذا كان بوسـع أحـد مـن النـاس أن يبيـع ضمـيره، ويـضرب بمبدئـه وعقيدتـه عـرض الحائـط، فيظـل هانئًـا بعملـه، قريـر العـين، فـما كان بوسـع إبراهيـم أن يفعـل ذلـك، وهـو الأبي النفـس، العيـوف للاسـتخذاء والـذل، وهـو الـذي كان يتحـول عـن الحـظ السـعيد يأتيـه وفيـه جـرح لكبريائـه وكرامتـه، أو خـلاف لمبدئـه وعقيدتـه، كـما يتحـول المؤمـن الصـادق عـن وسوسـة الشـيطان يغريـه، ويزيـن لـه، ليزعـزع إيمانـه الـذي أنـار اللـه بـه جوانـب قلبـه.

اشـمأزت نفـس إبراهيـم، وعافـت البقـاء بـين قـوم لا خـلاق لهـم، فآثـر الرحيـل عـن وطنـه الـذي تفـانى في حبـه، وأذاب روحـه في مناجاتـه، وعـزم عـلى الرحيـل إلى العـراق، بلـد العروبـة والعـزة.

وفي محادثـة تليفونيـة مـن قبـل قنصـل العـراق في القـدس يومئـذ، السـيد طالـب مشـتاق، الصديـق المحـب، سـجل اسـم إبراهيـم في وزارة المعـارف في بغـداد، ليـزاول مهنـة التعليـم في أحـد معاهـد العمـل هنـاك، ولقـد كان ذلـك بسرعـة، ودون أخـذ ورد، إذ كان إبراهيـم معروفًـا لـدى الأوسـاط الأدبيـة الرفيعـة في العـراق.

ولقد لاقى من والده معارضة شديدة بشأن ذلك الرحيل، وإلحاحًا عليه بالبقاء عنده في نابلس، ولكن إبراهيم، على بره بوالده برًّا يفوق الوصف، وعلى تعلقه العجيب بوالديه وإخوته – ولقد كان هذا البر وهذا التعلق من خلائق إبراهيم الممتازة - سافر إلى العراق وهو عازم عزمًا أكيدًا على عدم العودة إلى فلسطين مدى الحياة.

ومن هؤلاء الذين يصدق فيهم قول يزيد بن المهلب: «هم أهل العراق، أهل السبق والسباق، ومكارم الأخلاق»، وجد إبراهيم على أبواب بغداد من ينتظره من الأصحاب العراقيين، وفي بيت السيد محمد علي مصطفى الأستاذ في دار المعلمين العليا، نزل إبراهيم وأهله معززين مكرمين، إذ لم يكن قد تهيأ بيته بعد. وفي دار المعلمين الريفية، باشر عمله.

كان للمعاملة السيئة التي لقيها إبراهيم في وطنه، بين قومه، تأثير كبير على بنيته النحيلة، فلم تكن تلك البنية لتحتمل كل هذه الآلام النفسية التي كابدها خلال شهور ستة وهو الرقيق الشعور، المرهف الإحساس إلى حد يكاد يكون مرضًا. فلم يكد يمضي شهران على إقامته في بغداد، حتى وقع فريسة للعلة والسقم، مما حمله إلى العودة إلى نابلس قبل انتهاء الفصل الدراسي الثاني.

وأنهكت الأسقام إبراهيم، فنقل إلى المستشفى الفرنسي في القدس، وبعد أيام قليلة، وفي مساء الجمعة الثاني من شهر مايو سنة ١٩٤١، أسند إبراهيم رأسه إلى صدر أمه، وقد نزف دمه، وخارت قواه، وهناك

أسلم روحه الطاهرة إلى بارئه واستراح استراحة الأبد.

كان لإبراهيم - رحمه الله - مصحف صغير، لا يخلو منه جيبه، تبركًا به من جهة؛ وليكون في متناول يده كل حين، من جهة أخرى، ولقد ذكرنا من قبل كيف كان لا ينصرف عن تلاوة آي الذكر الحكيم في أغلب أيام حياته، وأينما كان. فلما توفاه بارئه، كان ذلك المصحف تحت وسادته، ولا تزال إلى اليوم، ثنية بناها في إحدى صفحات سورة (التوبة). وكانت هذه الآيات الشريفة آخر ما تلاه من كتاب الله أثناء مرضه. ولقد آثرت أن أختتم بها هذا الكتيب، إرضاء لروح إبراهيم الذي أحب القرآن الكريم ذلك الحب العميق، والذي صعَّد آخر أنفاسه ومصحفه لا يزال تحت وسادته، قريب عهده بتلاوته:

{الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)} [سورة التوبة].

شاعر فلسطين؛ المرحوم إبراهيم عبد الفتاح طوقان

لما كان مدرسا للأدب العربي في جامعة بيروت الأميريكية

بعضُ شِعرِه

مصرع بلبل

تمهيد: هذه القصة رمزية خلاصتها أن بلبلًا طار إلى روض أفيح كثير المياه وارف الظلال. ولكنه لم يكد يحوم فيه حومة حتى استشعر الوحشة واستولى عليه الخوف؛ ذلك لأن هذا الروض، على طيبه وسعته واختلاف أزهاره وثماره، كان خاليًا من الطيور، ولم يكن فيه منها أثر سوى بقايا ريش تتقاذفه الرياح وقشور من بيوضها استقرت في أعشاش متداعية زادته رؤيتها نفورًا ووحشة. فقضى البلبل ليلته خائفًا مستوحشًا يتوقع أن يكون في الروض سر خفي عليه ويوشك أن ينكشف له فيودي به كما أودي بأترابه من الطيور.

على أنه لم تكد تشرق الشمس ضاحية في صباح اليوم التالي حتى نسي همه وعاد إليه انشراحه، فطفق يغني ويتنقل من غصن إلى غصن، ومن غدير إلى غدير، حتى ساقه جناحه إلى وردة حمراء ناضرة، في مكان قصي من الروض فخلبه بهاؤها وسحره رواؤها وود لو يدنو منها فيتمتع بطيب شذاها، ويكتحل بحسن مرآها. ولكن دون ذلك أشواك تحميها وتجعل الدنو منها صعبا. وكانت هذه المنعة سببا في هيام البلبل بالوردة فهو لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار حتى يفوز بوقفة على غصن حبيبته وينشدها ما أملاه عليه وحي هواها.

وكأنما عمي البلبل أو تعامى عن ذلك السر الذي يغشى الروض بخلوه من الطيور ولم يردعه أن رأى قلوبها ملقاة رطبة ويابسة تحت أغصان

تلك الوردة -حتى بدا له يومًا من الوردة إقبال عليه وهيام به فعمد إليها ووقف عليها يريد شمها ولثمها - فكان جزاؤه منها ما لقيه طيور الروض قبله من الهلاك.

هذه حكاية رمزية تمثل ناحية من الواقع في حياة المدن الكبرى حين يدخل غمارها الشاب قادمًا من البلدة الصغيرة أو القرية البسيطة. هذه الحياة الصاخبة تخلب ذلك الشاب بزخرفها وفنون لهوها وألوان عبثها. تجتذبه إليها فيرتمي بين أحضانها، ويلقي بقياده فتذهب به في مزالق الضلال كل مذهب.

ثم تسفر هذه الحياة عن وجه كالح وتنقشع نشوتها عن صحو مضى أوانه فإذا هنالك إفلاس في أحد ثلاثة: في المال أو الصحة أو المستقبل، وكثيرًا ما أعلن الإفلاس في الثلاثة جميعًا وهنالك الفاجعة الأبدية. أما (البلبل) في هذه الحكاية فيرمز إلى الشاب المخدوع وأما (الوردة) فترمز إلى بائعة اللهو والعبث وأما (الروض) فهو رمز الحانة أو الملهى.

مصرع بلبل

قدرٌ ساقه فآواه روضًا

لم يكـن طار فيه قبلا وغنى

فاسـتوى فوق أيكة ورمى عينيه

فيما هناك يسرى ويمنى

وإذا الـروض بهجة الروح طيبا

وظلالا، وفتنة العين حسـنا

وكأن الغدير بين ضلال

وهدى كلما اسـتوى أو تثنى

تنحنـي فوقه كرائم ذاك الدوح

فيهـا الجنى وكم يتجنى

مطمئن يسـير تيها فإن رام

عنـاق الصخور صَدّتْ فَجُنّا

هكـذا يصبح الحبيب المعني

بعـد حين وهو المحب المعنّى

ومـضى البلبل الغريب يطوف الروض

حتـى انزوى محيا النهار

راح يـأوي الغصون فيه ولكن

كيـف يغفو مشرد الأفكار

كان في الـروض فوق ما يتمنى

من فتون الأثمار والأزهار

غـير أن ليس فيه طير يغني

أيٌّ روض يحلـو بلا أطيار

وسرت فيـه رعدة حين لم يلق

سوى دارس من الأوكار

وبقايا نواقف رخم الموت

عليها مخضب الأظفار

أي خطـب أصابكم معشر الطير؟

وماذا في الروض من أسرار؟

* * *

طلع الفجر باسـمًا إثر ليلٍ

دونه وحشـة كهوف المنية

تتنزى أشباحه صاخباتٍ

عاريات أكُفُّها دموية

ورجـوم تفري الغيوم وتهوي

كل رجم من الجحيم شـظيّة

وخسـوف تحدث البدر فيه

بفـم الحوت منذرًا برزية

ذاك ليـل قضى على البلبل المنكود

لولا يدٌ تصدت عليّة

ملكة عرشـها المشارق، والتاج

سـناها، أعظم بها شرقية

أنقذته فهبّ يشـدو شكورًا

مرحًـا، هاتفاً لها بالتحية

* * *

تحية البلبل للشـمس

مليكة النيرات

إلهة المشرقين

الناس في الغابرات

إليك مدوا اليدين

وأحرقوا في الصلاة

نضارهم واللجين

وقربوا الأعناق

زلفى تراق

* * *

يا ليل إنّ الصباح

رمز حياة الورى

أنفاسه في البطاح

وروحه في الذرى

أما رأيت الأقاح

أفاق بعد الكرى

وضوّع الآفاق

لما أفاق

* * *

هناك راعي الغنم

جذلان حيّ الفؤاد

يرتع بين الأكم

يهيم في كل واد

والناي صب النغم

وبثّه في الوهاد

كزفرة الأشواق

غِبَّ الفراق

* * *

نـسي الطير همه حين غنى

قلما يسـتقر همّ الطروبِ

ألف الروض مفردا وتولى

عنه في دوحه شـعور الغريب

مسـتقل في الملك لا من شريك

طامـع يُتّقَى، ولا من رقيب

مطلق، يسـتقر عند نمير

تـارة أو يقيل عند رطيب

وإذا «وردة» تفيض جمالا

تتهادى مع النسـيم اللعوب

قد حمتها أشـواكها مشرعات

حولهـا دون عابث أو غصوب

تمنـح العين حين تبدو وتخفي

مـن ضروب الإغراء كل عجيب

* * *

كل قلـب له هواه ولكن

ليـس يدري متى يجيء زمانه

وهـو إما في ظل جفن كحيل

كامن السـحر راقد أفعوانه

أو وراء ابتسـامة حلوة الثغر،

نقـي مفلج - أقحوانه

أو على الصدر يسـتوي بين عرشين

مكينا مؤيدا سلطانه

فـإذا كان لفحة من جحيم الرجس

أملى أحكامه شـيطانه

وإذا هـب نفحة من نعيم

الطهـر قامت مكينة أركانه

هـو ذا الحب فليكن حين يأتيك

بريئـا من كل عيب مكانه

* * *

صارت الـوردة الخليعة للبلبل

هما ومأربا يشقيه

حسرتـا للغرير أصبح كربا

مـا يلاقيه من دلال وتيه

شفه السهد واعتراه من

الحب سـقام مبرح يضنيه

مـن رآها وقد تحامل يهفو

نحوهـا كيف أعرضت تغريه

من رأى روحه تسـيل نشيدا

لاهبًا لوعة الأسى تذكيه

هــي حواء ذلك الخلد فاحذر

لا تكونـنّ أنت آدم فيه

لا تهـب قلبك الكريم لئيما

تحـت رجليه عابثا يلقيه

* * *

هـل يرى في ظلال وردته الحمراء

سرا بدا وكان خفيا

هل يـرى للطيور فيها قلوبا

نبذتهن يابسا وجنيّا

هـل يرى اليوم ما الذي جعل الرو

ض كئيبـا من الطيور خليّا

كـم نذير بدا لعينيه حتى

قام شـخص الردى هناك سويا

سـامه حبه شقاء ولكن

نعمة الحب أن يكون شـقيّا

والهـوى يطمس العيون ويلقي

في قرار الأسـماع منه دويّا

هكذا يسـلك المحب طريق الـ

خوف أمنا، ويحسـب الرشد غيّا

* * *

مـن ترى علم البخيلة حتى

سـمحت أن يقبل الطير فاها

لم يصـدق عينيه حتى أطلت

وأطالـت في ختله نجواها

زلـزل الروض عند ذلك بالألحان

فاسـمع روايتي عن صداها

نشيد البلبل للوردة

أنشدي يا صبا

وارقصي يا غصون

واسقني يا ندى

بين لحظ العيون

فيك يا وردتي

قد حلا لي الجنون

أنا مني الهوى

أنت منك الفتون

انشري ما طوت

من غرامي السنون

كان في أضلعي

فروته الجفون

اقربي من فمي

فحديثي شجون

* * *

ضمهـا الطير مطبقًا بجناحيه

وهمّت بثغره شفتاها

لم يمتع بنشـوة الحب حتى

أشرعت شـوكة تلظّى شباها

أوردتهـا قلبًا إذا رف يومًا

خافقًـا للهوى فذاك هواها

كرعـت في الدم البريء فلما

عكسته وهاجة وجنتاها

نظـر الطير نظرة أعقبتها

روحه طيّ شـهقة، معناها:

وردة.. تبهـر العيون ولكن

كثرة الشـم قد أضاعت شذاها

تفاؤل وأمل

كفكف دموعك، ليس ينفعك البكاء ولا العويل

وانهض ولا تشك الزمانَ فما شكا إلا الكسولُ

واسلك بهمتك السبيل ولا تقل كيف السبيل

ما ضل ذو أمل سعى يومًا وحكمته الدليل

كلا، ولا خاب امرؤ يومًا ومقصده نبيل

* * *

أفنيت يا مسكين عمرك بالتأوه والحزنْ

وقعدت مكتوف اليدين تقول: حاربني الزمنْ

ما لم تقم بالعبء أنت من يقوم به إذن؟

* * *

كم قلت: (أمراض البلاد) وأنت من أمراضها

والشؤم علتها: فهل فتشت عن أعراضها

يا من حملت الفأس تهدمها على أنقاضها

أقعد فما أنت الذي يسـعى إلى إنهاضها

وانظـر بعينيك الذئاب تعب في أحواضها

* * *

وطن يباع ويشترى

وتصيح «فليحيَ الوطن»؟!

لو كنت تبغي خيره

لبذلـت من دمك الثمن

ولقمت تضمد جرحه

لـو كنت من أهل الفطن

* * *

أضحى التشـاؤم في حديثك بالغريزة والسليقه

مثل الغراب نعى الديار وأسـمع الدنيا نعيقه

تلـك الحقيقة والمريـض القلب تجرحه الحقيقه

أمل يلوح بريقه واشْـهدِ يا هذا بريقه

ما ضاق عيشـك أو سـعيت له ولو لم تشك ضيقه

* * *

لكن توهّمت السـقام، فأسقَمَ الوهمُ البدن

وظننـت أنـك قد وهنت فدبّ في العظم الوهن

والمـرء يرهبه الردى ما دام ينظر للكفن

* * *

الله ثـم الله ما أحلى التضامنَ والوفاقا

بوركت مؤتمرا تألف لا نزاع ولا شـقاقا

كـم مـن فؤاد، راق فيه ولم يكن من قبل راقا

اليوم يـشرب موطني كأس الهناء لك دهاقا

لا تعبؤوا بمشـاغبين ترون أوجههم صفاقا

* * *

لا بـد مـن فئة - أجلكم - تلذ لها الفتن

تلـك النفوس من الطفولة أرضعت ذاك اللبن

نشـأت على حب الخصام وبات يرعاها الضغن

* * *

لا تحفلـوا بالمرجفين فإن مطلبهم حقير

حبُّ الظهور على ظهور الناس منشـأه الفجور

مـا لم يكن فضـل بزينك فالظهور هو الغرور

سـيروا بعين الله، أنتم ذلك الأمل الكبير

سـيروا فقد صفت الصدور، تباركت تلك الصدور

* * *

سيروا فسـنتكم لخير بلادكم خير السننْ

شـدّوا المودة والتآلف والتفاؤل في قَرَنْ

لا خـوف إن قـام البناء على الفضيلة وارتكن

* * *

حيِّ الشـباب وقل سلاما إنكم أمل الغدِ

صحَّـت عزائمكم على دفع الأثيم المعتدي

والله مـد لكم يدا تعلو على أقوى يد

وطني أزف لك الشباب كأنه الزهر الندي

لا بـد مـن ثمر له يوما وان لم يُعْقِدِ

* * *

ريحانُهُ العلم الصحيح وروحه الخلقُ الحسـنْ

وطنـي وإن القلب يا وطني بحبك مرتهنْ

لا يطمـئن، فإن ظفرت بما يريد لك اطمأنْ

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

رقمنة
مشروع النشر الرقمي